الحضارة الإسلامية

بقلم : الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح

وهذه الحضارة الإسلامية تمتاز بأن كل مقوماتها الجوهرية تنبع من الإسلام الذي يمدها بالروح والقوة والتماسك ويوجهها إلى الموازنة بين مقاصد الروح ومطالب البدن .

والحضارة الإسلامية في نظام عقيدتها تقوم على توحيد الله وإفراده بالعبادة والتمسك بما شرع من آداب وتعاليم .

وهي في **نظامها السياسي** : تقوم على الشورى ، والنزول على رأي الجماعة والمساواة بين الناس واحترام حقوق الإنسان والتزويد بأسباب القوة والمنعة .

وفي **نظامها الخلقي** : تقوم على خلوص النية ، ونقاء الضمير ، والتمسك بالحق والعدل ، والسلوك المستقيم ، والتزام الآداب الفردية والاجتماعية التي تسير بالإنسانية إلى الكمال .

وفي **نظامها الاقتصادي** : تقوم على تبادل المنافع ، واتخاذ المال وسيلة لا غاية واحترام الملكية الفردية .

وفي **نظامها التشريعي** : تقوم على أصول رئيسة واسعة ، وقد تمثلت هذه الناحية في ثروة من الفقه الإسلامي تجلت فيها عبقرية الحضارة الإسلامية وتمثلت فيها حرية الاجتهاد .

وفي نظامها الثقافي : تعتمد على طلب المعرفة من مظانها ومن أي مكان وزمان واستخدام العقل في كسب المعارف واعتبار الثقافة أيا

كان مصدرها ومهدها تراثاً إنسانياً .

ويستطيع الدارسون للحضارة الإسلامية : أن يدركوا في وضوح أن الحضارة الإسلامية :

- قد وصلت بين قديم الحضارات وجديدها بما حفظت من تراث الأقدمين ، وما أضافت إليه من صنع توجيهاتها .
- وأنها أنقذت العالم مما كان يعيش فيه من فوضى وانهيار واضطراب ، واستعباد ، وظلم .
- وأنها أعطت العالم حضارة جديدة تقوم على عقيدة التوحيد في أسمى صورها وأصفاها ، أعطت كذلك مجتمعاً جديداً يقوم على التعاون والتسامح والحرية والتعايش السلمي بين الجميع .
- وأنها أعطت الإنسانية ذخيرة حية من المعارف أفاد منها الغرب في حركاته الإصلاحية ، وتعتمد عليها الأمة الإسلامية في يقظتها الواعية وعودتها الصادقة .
- وأنها وضعت بعض أصول المنهج العلمي الحديث كطريقة الشك عند الغزالي والتكامل الخلقي والسلوكي عند الحكيم الترمذي كما فتحت آفاقاً جديدةً في البحوث الإنسانية والدراسات الاجتماعية كفلسفة التاريخ عند عبد الرحمن بن خلدون وعلم البصريات عند ابن الهيثم وابتدأت مرحلة جديدة في تطور علوم الرياضة على يد الخوارزمي وعمر الخيام .
- وقد ساعدت الحضارة الإسلامية بآدابها على نهضة الآداب في أوربا وفتحت آفاقاً جديدةً أمام شعراء الغرب وكتابه .
- وأن خلفاء الحضارة الإسلامية وقادتها قد ساعدوا بأخلاقهم وسلوكهم وبمثالية المروءة والشرف والقيم التي تحلوا بها على

إشاعة المثل الخلقية الرفيعة مما كان قدوة لمن احتك بهم في السلم أو في الحرب .

وإن من يمعن النظر في أعماق الحضارة الإسلامية وما حققته للإنسان من أسباب النمو وعوامل الازدهار ، ويلم بما جاء به الفكر الإسلامي من مفاهيم تناولت أهم معضلات الحياة ، يدهشه مدى عمق التفكير الواعي الذي بلغ ذروته علماء الإسلام ، ويتضاعف إعجاب الباحث بهذا الفيض الزاخر من الجهود العلمية العظمية التي ملأت الدنيا .

وتزداد دهشة المفكر ، ويتعاظم تمجيده لحركة التحول الخطيرة التي أصابت المجتمع في تلك الفترة القصيرة .

ترى أي سر هذا الذي استطاع أن يحوّل عرب الصحراء إلى أساطين في العلم ومشاعل في الحضارة ومناورات في الثقافة ؟ وأي قوة رفعت العرب من حال البداوة التي كانوا عليها إلى أبطال وقادة غير هيابين ولا وجلين ؟ وترى كيف نفسر سرعة تطور العرب من الجاهلية الجهلاء إلى الحضارة العلياء في أقل مدة عرفتها الإنسانية ؟

تقول الكاتبة الألمانية الدكتورة سيجريد هونكه : (إن هذه الطفرة العلمية الجبارة التي نهض بها أبناء الصحراء من العدم من أعجب النهضات العلمية في تاريخ العقل البشري) .

ليس من المعقول في نظر المفكر والباحث : أن يطفر الفكر العربي الذي قيدته ظروف الحياة القبلية الآسنة اليبوس إلى تلك المرتبة العالمية دون أن تكون هناك الأسباب القوية التي دفعت به إلى الحياة المتحركة دفعاً .

ومن المسلم به : أنه لم تظهر قبل الإسلام أية دلائل على

التطور الفكري من العرب المنتشرين في الجزيرة العربية ، و كان الشعر ، والخطابة ، والتنجيم أحب شئ إلى عرب الجاهلية .

إذن .. ما هي تلك الأسباب التي استقى منها الفكر العربي مادة حيويته وتطوره ؟ وما هي الموارد التي نهل منها أسباب تكامله وقوته ؟

إن المنبع الأول والأصيل في كل ذلك هو القرآن الكريم ، وذلك أن القرآن لم يكن كتاب دين يحث على العبادة فحسب ، وإنما كان إلى جانب تأكيده وحدانية الله وما يتبعها من عقائد وعبادات وأوامر ونواه ، كان أعظم المناهج التي عرفتها الإنسانية في تاريخها الطويل الممتد عبر الزمن ، وذلك بما تضمنه المنهج الإسلامي من القواعد الرصينة الكفيلة بقيام المجتمع الإنساني .

ولقد كان أول أثر القرآن في الفكر الإنساني اهتمامه الواسع بالعلم ، وذلك أن العلم أساس التقدم ، وتبادل الخبرات والمنفعة .

وقد كانت عناية القرآن بالعلم تفوق حد الوصف ، تأمل القرآن وتدبر آياته تجده يدعو إلى تحكيم العقل والمنطق في مظاهر الكون وأحداث الماضي .

ولقد اشتمل القرآن الكريم على آلاف الآيات التي احتوت أصولاً وحقائق تتصل بعلوم الفلك والطبيعة وما وراء الطبيعة والأحياء والنبات والحيوان وطبقات الأرض والأجنة والوراثة والصحة والتعدين والصناعة والتجارة والمال والاقتصاد إلى غير ذلك من أمور الحياة .

واحتوت باقي الآيات على الأصول والأحكام في المعاملات وعلاقات الأمم والشعوب في السلم والحرب وفي سياسة الحكم

وإقامة العدل وكل ما يتصل ببناء المجتمع وهذا كله بخلاف العبادات والتكاليف والقصص والمواعظ والأمثال وغير ذلك من شتى أمور الدين والدنيا مما كان محلاً للدراسة والاستنتاج والبحث والتنقيب والتأصيل والتقعيد وكان أساساً لعلوم الفقه والتفسير والحديث والأصول والأخلاق والبلاغة والنحو والأدب .

ذلك أن القرآن من العمق والاتساع والعموم والشمول بما يقبل تفهم البشر له أياً كان مبلغهم من العلم وبما يفي بحاجاتهم في كل عصر ويتجاوب مع أهل البداوة في يسر ويبهر في عمقه أهل الحضارة الذين صعدوا في سلم الرقي وبرعوا في فنون العلم والمعرفة.

لقد كرم الإسلام العلم وحث المسلمين على المزيد فيه والاستفادة منه لأنه ينير العقول المظلمة ويحيي القلوب الميتة ويهدي النفوس الحائرة ويرقي بالمجتمعات الإنسانية ويسمو بالقواعد الحضارية.

وقد كانت عناية الإسلام بالعلم تفوق حد الوصف حتى إن كلمة العلم بجميع تصريفاتها واشتقاقاتها ترد في أكثر من خمسمائة آية من آيات القرآن الكريم وهذا ينبئ عن مكانة العلم في الإسلام .

والقرآن الكريم نفسه مشتق من القراءة والقراءة أدنى مفاتيح العلم الإنساني : بل هي مفتاح هائل ، وطريق دائم للمعرفة ، والإنسان مهما كان ضعيفاً في العلم والثقافة فإنه إلى مزيد في العلم والثقافة ما دام يقرأ ، وأول ما نزل على محمد رسول الله ﷺ من وحي السماء عندما كان يتحنث في غار حراء خمس آيات من القرآن الكريم هي قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِيْ خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِيْ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ

يَعْلَمْ ﴾ (العلق/١-٥) ففي هذه الآيات الخمس بدأ الوحي الإلهي بالأمر بالقراءة في أول آية وكان ذلك بصيغة فعل الأمر ، وقد تكرر الأمر بالقراءة في الآية الثالثة ، وأوضحها مؤكداً ما رمي إليه من معنى ، وهو التعليم وزاد التأكيد بذكر القلم .

يقول القاسمي في تفسيره : والتعليم بالقلم من أعظم نعم الله على عباده إذ به تخلد العلوم ، وتثبت الحقوق ، (وتعلم الوصايا) ، وتحفظ الشهادات ، وتضبط حسابات المعاملات الواقعة بين الناس وبذا تقيد أخبار الماضيين للباقين اللاحقين .

ولو لا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض ودرست السنن واختلطت الأحكام ولم يعرف الخلف مذاهب السلف وكان معظم الخلل الداخل على الناس في دينهم ودنياهم إنما يعتريهم من النسيان الذي يمحو صور العلم من قلوبهم فجعل لهم الكتاب وعاءً حافظاً من الضياع كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان .

ويقول فضيلة الشيخ المراغي في قوله تعالى :

﴿ ن * وَالْقَلَمِ * وَمَا يَسْطُرُوْنَ ﴾ (القلم/١) الله يقسم بالقلم والكتب فتحاً لباب التعليم بهما ولا يقسم الله إلا بالأمور العظام فإذا أقسم بالشمس والقمر والليل والفجر فإنما ذلك لعظمة الخلق وجمال الصنع .

وإذا أقسم بالقلم والكتب فإنما ذلك ليعلم العلم والعرفان وبه تتهذب النفوس وترقي شئوننا الاجتماعية والعمرانية .

وما أروح لفظ **"وما يسطرون"** حيث يشمل كل فنون الكتابة والتعبير عما في الضمير بالرسم والتصوير ، ويشمل كل آلة أو نظام

استحدث للتوصل إلى ذلك من آلات ومعدات حدثت أو ستحدث .

فإنسانية الإنسان لا تكمل إلا في ظل المعرفة الصادقة والعلم البناء المثمر الذي يوضح المعالم ، ويهدي إلى الرشاد .

والإسلام يحض المسلمين على طلب العلم والتفقه في الدين والبحث الدقيق في كل مجالاته وفنونه وفروعه ، وأن يتحملوا المشاق في سبيل تعلمه وتحصيله وأن يبذلوا كل طاقتهم في طلب المزيد منه ، وأن يتعلموا كل ما ينفعهم في دينهم ودنياهم ، وكل ما يعود عليهم و على الأمة الإسلامية ، والمجتمعات الإنسانية بالخير والرقي ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُوْنَ لِيَنْفِرُوْا كَافَّةً * فَلَوْ لاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ * لِّيَتَفَقَّهُوْا فِيْ الدِّيْنِ * وَلِيُنْذِرُوْا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوْا إِلَيْهِمْ * لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُوْنَ ﴾ (التوبة/١٢٢) .

فهذه الآية الكريمة تشير إلى أن تعلم العلم واجب على الأمة جميعاً وجوباً لا يقلُّ عن وجوب الجهاد والدفاع عن العقيلة والوطن الإسلامي .

فإن الوطن يحتاج إلى من يناضل عنه بالسيف وإلى من يناضل عنه بالحجة والبرهان .

وفي الآية كما جاء في تفسير المراغي إشارة إلى وجوب التفقه في الدين والاستعداد لتعليمه في مواطن الإقامة وتفقيه الناس فيه بالمقدار الذي تصلح به حالهم ، فلا يجهلون الأحكام الدينية العامة التي يجب على كل مؤمن أن يتعرفها والناصبون أنفسهم لهذا التفقه على هذا القصد لهم عند الله من أسمى المراتب ما لا يقل في الدرجة عن المجاهد بالمال و النفس في سبيل إعلاء كلمة الله و الذود عن الدين والملة ، بل هم أفضل منهم في غير الحال التي يكون فيها الدفاع واجبا

عينياً على كل شخص .

روي البخاري ومسلم وابن ماجة عـن معاوية ﷺ قـال : قـال رسول الله ﷺ : من يـرد الله بـه خيراً يفقهـه في الديـن ، وروى أحمـد والطبراني عن صفوان بن عسال المرادي ، قال : أتيـت النبي الكريـم ﷺ ؛ وهو في المسجد متكئ على برد له أحمر، فقلت له : يا رسول الله ! إني جئت أطلب العلم ، فقال : مرحباً بطالب العلم إن طالب العلـم تحفه الملائكة بأجنحتها ثم يركب بعضهم بعضاً حتـى يبلغـوا السـماء الدنيا من حبهم لما يطلب .

وانطلاقاً من تعاليم الإسلام ودعوته إلى العلم أدرك المسلمون مبلغ الحاجة إليـه في بنـاء المجتمـع ودعـم مراكـز الأمـة ، لهـذا وجـهوا العزائم في طلب العلوم علـى اختـلاف أنواعـها ، ولم يشـغلهم عـن طلبها ترف الحضارة ، ولم تثن عزائمهم عنها بأساء الحيـاة وضراوتـها ، بحثوا عنها في آيات الله التشريعية ، وآيات الله الكونية .

وأقاموا لها في كل مدينة مناراً عالياً ، وحملوا المشاعل المضيئة إلى مشارق الأرض ومغاربـها ، ولم يقـف المسـلمون بجهودهم عنـد نتـاج عقولهم وأفهامهم بل اتجهوا إلى علوم السابقين ، يدرسون ؛ ويبحثون ، فاستخرجوا العلـوم وكـانوا يطلبـون العلـوم طلـب النـاقد البصـير ، واكتمل لهم من ملكة العلوم والفنون في جيل واحد ما لم يكتمل لأمـة من الأمم الناهضة في عدة أجيال .

وفي ذلك يقول بعض العلمـاء المؤرخـين : إن ملكـة الفنـون لم يتم تكوينها في أمـة مـن الأمـم الناهضـة إلا في ثلاثـة أجيـال : جيـل التقليد ، وجيل الخضرمـة ، وجيـل الاسـتقلال والاجتـهاد إلا العـرب وحدهم فقد استكملت لهم ملكة الفنون في الجيل الأول الـذي بـدأوا

فيه بمزاولتها .

وقد قام العلماء والمفكرون المسلمون بهذه النهضة العلمية التي تخطت مراحل النهوض في الأمم ، قاموا بها رغم الأحداث العاتية التي حملوا أعباءها والحروب الطاحنة التي خاضوا غمارها لأن الأحداث والحروب ، وإن بلغت ما بلغت لا تستطيع أن تقف في طريق العقائد الصحيحة التي انطوت عليها القلوب وتفاعلت بها النفوس ، ولا أن تمنع العزائم القوية من الوصول إلى تحقيق أغراضها وأهدافها .

واستطاع المسلمون في سرعة لم يعهد لها مثيل في تاريخ الحضارة أن ينتقلوا من أمة الأمية إلى أمة العلم والقيادة الفكرية وأن يصبحوا قادة للفكر و رواداً للمعرفة والعلوم والفنون يدرسونها للأجيال المعاصرة كأحسن ما يكون التدريس والتعليم وينشرونها في شعوب كانت تائهة في عماء الجهل وظلمته ويدونونها للأجيال المقبلة كأحسن ما يكون التدوين والتأليف .

وإن الأمة التي أكرمها الله بالقرآن تتطلع إلى غد مشرق بالعلم والحضارة وخير للأمة أن تعمل في حزم وعزم لتحقيق الأمجاد .

***

وصلى الله تعالى على خير خلقه
محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

***